مقالات

دفاعًا عن الأنثروبولوجيا: من أجل إعادة صياغة الأنثروبولوجي

عثمان لكعشمي

باحث مغربي، متخصص في الفلسفة والسوسيولوجيا

مركز نهوض للبحوث والدراسات

NOHOUDH CENTER FOR RESEARCHS AND STUDIES

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٢٠

All rights reserved © 2020

دفاعًا عن الأنثروبولوجيا:
من أجل إعادة صياغة الأنثروبولوجي

عثمان لكعشمي

باحث مغربي، متخصص في الفلسفة والسوسيولوجيا

"إن التســاؤل اليوم عن حرفة الأنثروبولوجي،
هو بمثابة تســاؤل عن العالم الراهن".

مارك أوجي[1]

(1) Augé, Marc.(2006), Le Métier d'anthropologue.. Sens et liberté. Paris: Editions Galilée. P. 09.

لم يشهد مجال معرفي ما في عالمنا العربي من رفضٍ ونفيٍ ومعارضةٍ ونقدٍ، أكثر وأشد مما حصل مع الأنثروبولوجيا: الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية. لطالما كانت - وربما ما زالت - علاقتنا نحن العرب والمسلمين وما يُسمَّى بالعالم الثالث - بصفة عامَّة - بالأنثروبولوجيا المعنية علاقةً متوترةً على الدوام في مختلف المستويات: معرفيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا.

فإلى اليوم ما زالت الجامعات العربية بوجه عام، في معظم الأقطار العربية من المشارق إلى المغارب، وكليات الآداب والعلوم الإنسانية (أو كليات العلوم الاجتماعية والإنسانية) بوجه خاص، ما زالت تفتقر إلى قسمٍ أو شعبةٍ خاصَّة بعلم الأنثروبولوجيا (الإناسة)، باستثناء تضمنها كوحداتٍ معزولة ويتيمة من وحدات شعبة الدراسات السوسيولوجية (**علم الاجتماع**). فبأي معنى هي كليات للآداب والعلوم الإنسانية/ كليات العلوم الاجتماعية والإنسانية؟ بالمعنى الذي تُسقط فيه علم الإنسان من لائحة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

صحيح أن هناك اجتهاداتٍ ومحاولاتٍ تأسيسيةً لا يمكن التغاضي عنها أو تجاهلها في المنطقة العربية في هذا الباب، خاصةً منذ السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم إلى اليوم في المغارب والمشارق، وصحيح أيضًا أن هناك تزايدًا في الأبحاث والدراسات والإصدارات، من مقالاتٍ وكتبٍ في هذا الشأن، وإنْ كانت بوتيرة ضعيفة نسبيًّا. لكنها مع ذلك تبقى هامشية (و**مهمَّشة**)، لا ترقى إلى الأنثروبولوجيا المنشودة. هذا إذا كانت تستجيب فعلًا للمعايير العلمية كما هو متعارف عليها في المجال الإبيستيمولوجي للأنثروبولوجيا، سواء من حيث المواضيع المتقادمة المتناولة، أو من حيث المناهج المستعملة، أو من حيث تأويل النتائج. فمعظم الأعمال المندرجة في مجالنا المعني، لا تحمل أية مجهوداتٍ متميزة، باستثناءاتٍ محدودة، سواء على مستوى المناهج أو على مستوى التنظير. وهذا بالضبط ما أكَّدت عليه النتائج المختصَّة بإنتاجات الأنثروبولوجيا الصادرة باللغة العربية في العالم العربي، التي تضمَّنها التقرير الثاني للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية[1].

مردُّ ذلك إلى جملةٍ من الشروط والاعتبارات، يتداخل فيها الإبيستيمولوجي بالسياسي والأيديولوجي. فعادةً ما يتحدَّد المستوى الأيديولوجي والسياسي في الفكرة التي تقول بأن الأنثروبولوجيا «علم استعماريٌّ» بامتياز. انطلاقًا مِن الرحلات الاستكشافية - ما قبل الاستعمارية، أي

(١) للتوسُّع أكثر في واقع الإنتاجات الأنثروبولوجية في العالم العربي، يمكن العودة إلى التقرير الآتي:
- حمودي، عبد الله. العلوم الاجتماعية في العالم العربي: مقاربة الإنتاجات الصادرة باللغة العربية (٢٠٠٠- ٢٠١٦). بيروت - لبنان: المرصد العربي للعلوم الاجتماعية - المجلس العربي للعلوم الاجتماعية، ٢٠١٨، ص٥٢- ٧٤.

مـن اللحظـة الاسـتشراقية الأولى - مـرورًا باللحظـة الاسـتعمارية، وصـولًا إلى اللحظـة مـا بعـد الاسـتعمارية. أمـا المسـتوى الإبيسـتيمولوجي، فهـو يتجـلَّى في كـون العقـل العـربي لم يسـتوعب بعـدُ أن المجـال المعـرفي المعنـيَّ قـد تجـاوز موضوعـه العتيـق والكلاسـيكي: المجتمعـات والثقافـات المسـمَّاة بالبدائيـة، والتقليديـة، والقرويـة، فالمسـتعمَرة، ثـم المتغلَّبـة.

لا ريـب في كـون هـذه المواقـف والتصـورات المضـادة والمعارِضـة عربيًّـا للأنثروبولوجيـا الثقافيـة والاجتماعيـة، لهـا مـا يبرِّرهـا ويعلِّلهـا سـياقيًّا: إبيسـتيمولوجيًّا وتاريخيًّـا. إذا أخذنـا بعـين الاعتبـار ذلـك الارتبـاط الوثيـق (**المشـبوه**) فيـما بـين العلـوم الاجتماعيـة بعامَّـة والأنثروبولوجيـا بخاصَّـة (المتزامنـة مـع حركـة الاسـتعمار) وأيديولوجيـا الاسـتعمار. فضـلًا عـن النظـرة التحقيريـة للآخـر (**التمركـز الإثنـي حـول الـذات**) غـير الغـربي: كمتوحـش أو إنسـان مـن درجـة أقـلَّ. اعتبـارًا في التقسـيم العلمـي للسوسـيولوجيا، كـما دعـا إليـه الفيلسـوف الوضعـي وعـالم الاجتـماع الفرنـسي أوغسـت كونـت (**Comte.A**.) في دروسـه الوضعيـة (**دروس الفلسـفة الوضعيـة، ١٨٣٠**). ذلـك التقسـيم العلمـي بـين سوسـيولوجيا تـدرس المجتمعـات الصناعية-الوضعيـة، وسوسـيولوجيا تـدرس المجتمعـات الأخـرى، غـير الغربيـة أو المجتمعـات مـا قبـل الحالـة الوضعيـة، التـي ستشـكِّل لاحقًـا موضوعًـا للاسـتعمار الأوروبي والغـربي، أَلَا وهـي الأنثروبولوجيـا عينهـا، التـي شـكَّلت الأُسـس الإبيسـتيمولوجية للعلـوم الاجتماعيـة الاسـتعمارية، وحقـلًا خصبًـا للأيديولوجيـا الاسـتعمارية. وبغـضِّ النظـر عـن أسسـها النظريـة المشـبوهة في النظـر إلى الإنسـان اللاغـربي أو إلى خلفياتهـا الأيديولوجيـة الممتـدَّة للاسـتشراق، فإنهـا لم تتجـاوز - منهجيًّـا - تزامنيتهـا القاتلـة، في اقتصارهـا عـلى الحـاضر والتجربـة الملموسـة في مقابـل تهميـش التجـارب التاريخيـة المتميـزة للثقافـات الشرقيـة، كـما هـو الشـأن بالنسـبة إلى ثقافتنـا وحضارتنـا العربيـة الإسـلامية.

الأمـر نفسـه سـيطرح عـلى علـمٍ اجتماعـيٍّ آخـر، ليـس بعيـدًا كل البُعْـد عـن مجالنـا المعـرفي هـذا، أتحـدَّث هنـا عـن علـم الاجتـماع. إذ يصعـب جـدًّا أو بالأحـرى يسـتعصي عـلى المـرء أن يميِّـز - والحالـة هـذه - بـين مـا هـو سوسـيولوجي ومـا هـو أنثروبولوجـي في الدراسـات الكولونياليـة، خاصـةً في حالـة المغـرب الكبـير (**المغـرب العـربي**) بعامَّـة، وحالـة المغـرب الأقـصى بخاصَّـة. لهـذا فـإن الاسـتقلال السـياسي للمغـرب قـد طـرح عـلى المثقفـين المغاربـة - مفكِّريـن وعلـماء اجتـماع وغيرهـم - مسـألة الخلفيـات الأيديولوجيـة للـتراث السوسـيولوجي الكولونيـالي. كيـف ينبغـي التعامـل مـع هـذا الـتراث؟ بمعنـى أدقَّ: كيـف نصفـي حسـابنا معـه، هـل نكتفـي برفضـه المطلـق، ونكـون بذلـك قـد خسرنـا تراثًـا «علميًّـا» غنيًّـا يمكنـه أن يشـكِّل غنـىً وتقعيـدًا لسوسـيولوجيا وطنيـة (**لـكي لا نقـول مغربيـة**)، أم نفتـح حـوارًا معـه مـن خـلال نقـده وتفكيكـه أولًا، ثـم الاسـتفادة منـه ثانيًـا؟ لا يفوتنـا في هـذا الجانـب أن نشـير إلى دور كلٍّ مـن

علـماء الاجتـماع: بـول باسـكون، وعبـد الكبـير الخطيبـي، ومحمـد جسـوس...إلخ، في هـذا النقـاش. ومـا نجـم عـن ذلـك مـن توطـينٍ للسوسـيولوجيا فكريًّـا، معرفيًّـا ومؤسسـيًّا، رغـم المضايقـات السـلطوية. لكـن مـا علاقـة ذلـك بالأنثروبولوجيـا؟

لعـل التحريـر المزعـوم للسوسـيولوجيا مـن النزعـة الاسـتعمارية (**la décolonisation de la so-ciologie**)، قـد أفـضى - بطريقـة أو بأخـرى - إلى إسـقاط الأنثروبولوجيـا أو بالأحـرى مقاومتهـا. بمعنـى آخـر: إن نقـد الأسـس الأيديولوجيـة للسوسـيولوجيا الكولونياليـة مـن جهـة أولى، وتملـك النزعـة القوميـة للنُّخـب العربيـة مـن جهـة ثانيـة، قـد أدى إلى نتيجـة غـير مبـاشرة هـي: الخلـط إن لم يكـن التطابـق بـين الأنثروبولوجيـا والأيديولوجيـا الاسـتعمارية، أو أيديولوجيـا الهيمنـة الغربيـة عمومًا. ونتيجـة لذلك، صار علم الأنثروبولوجيـا (الإناسـة) في العقـل العربي الإسـلامي والثقافة العربية الإسـلامية مرادفًـا لأيديولوجيا التغلُّب.

إن توطـين السوسـيولوجيا وتجذيرهـا في مجتمعاتنـا العربيـة، خاصـةً في حالـة المغرب الكبـير، كان على حسـاب تهميـش الأنثروبولوجيـا. ويكفـي أن نشـير بهـذا الصـدد - كأنمـوذجٍ - إلى إسـقاط عـالم الاجتـماع المغـربي عبـد الكبـير الخطيبـي للأنثروبولوجيـا أو كل مـا هـو أنثروبولوجـي مـن حصيلتـه الشـهيرة عـن العلـوم الاجتماعيـة الكولولنياليـة، مـن كتابـه الموسـوم بـ»حصيلـة السوسـيولوجيا الكولونياليـة» (**الصـادر سـنة ١٩٦٧**)، الـذي عمـل فيـه عـلى تصنيـفٍ منهجـيٍّ بـين مـا هـو أيديولوجـي وعلمـي، مـع إعـرافٍ صريـح عـن الإثنولوجيـين في الأبحـاث السوسـيولوجية، بُغيـة تحريرهـا مـن الأيديولوجيـا الاسـتعمارية.

لمـاذا لم يقـع الـشيء نفسـه مـع الأنثروبولوجيـا؟ ولمـاذا لم يتـم العمـل عـلى تحريرهـا مـن النزعـة الاسـتعمارية وتطويرهـا عـوض الإعـراض عنهـا وتهميشـها؟ قـد نجيـب: لأنهـا ذات خلفيـاتٍ وحمـولاتٍ أيديولوجيـة اسـتعمارية أكـثر، كـما أسـلفنا الذكـر. والأمـر نفسـه ينطبـق عـلى الدراسـات الأنكلوساكسـونية اللاحقـة، سـواء تعلَّـق الأمـر بالنظريـة التجزيئيـة (**أو الانقسـامية**) أو بغيرهـا، فهـي لم تتحـرَّر مـن نزعتهـا الأيديولوجيـة، أيديولوجيـا التمركـز حـول الـذات الغربيـة، وإرادة الهيمنـة (**إرادة القـوة والتغلُّـب**)، هيمنة القـوى المتغلِّبـة. هـل نكـون بهـذا قـد قدَّمنـا جوابًـا شـافيًا عـن سـؤالنا هـذا؟ طبعًـا لا. رُبَّ سـائلٍ يقـول: قـد تكـون مسـألة التعالـق الأيديولوجـي منطبقـةً بالصـورة نفسـها عـلى العلـوم الاجتماعيـة عمومًـا، لكـن لمـاذا الأنثروبولوجيـا بالـذات؟ والحـال أن الأنثروبولوجيـا لم تتعـرض إلى نقـدٍ داخـليٍّ فحسـب، مـن طـرف الباحثـين في العلـوم الاجتماعيـة بدعـوى العلميـة والأيديولوجيـة الاسـتعمارية، بـل تعرضـت إلى نقـدٍ خارجـيٍّ أيضًـا، قـد يكـون أشـدَّ مـن الأول. وقـد تعرضـت الأنثروبولوجيـا عندنـا أيضًـا إلى نقـدٍ جـذريٍّ مـن طـرف عـدَّة مفكِّريـن عـرب، عـلى رأسـهم: إدوارد سـعيد، ومحمـد عابـد الجابـري، وعبـد اللـه العـروي.

لقد قيل الكثير عن الأنثروبولوجيا كحقلٍ معرفيٍّ بهذا الصدد. فهناك من قال بضرورة إقصائه نهائيًّا؛ نظرًا لارتباطه بالتغلغل الإمبريالي والكولونيالي. وهناك من ارتأى أن التاريخ - استنادًا إلى تاريخانية تتبنَّى الموضعة - هو وحده الكفيل بإنتاج معرفةٍ جديدةٍ تنير طريق المجتمعات المستقلة. وهناك من قال إن الأنثروبولوجيا متجاوزة كالقبيلة والسلالة، والعرف، والأمازيغيات، وما سُمي: «الفلكلور»، و«حكايات العجائز» حسب تعبير عبد الله العروي. وهناك من قال - عن صوابٍ في هذه النقطة - إنها اهتمَّت أساسًا بالتنقيب عن الفروقات: عرب/بربر، مدن/قبائل، ثقافة عالِمة/ثقافة شعبية، مخزن/سيبة... وغيرها من الفروقات، في نطاق سياسة «فرِّق تَسُد»، خدمةً للمستعمر، وتمزيقًا لوحدة الأمة والوحدة الوطنية النابعة منها. وهناك في الأخير من زعم أنها مجرَّد «متاهات» تلهي عن مشروعٍ ثقافيٍّ عربيٍّ متكاملٍ هو الوحيد الذي يضمن التقدُّم. وقد انتشر هذا الطرح الأخير الذي أتى به محمد عابد الجابري في أوساطٍ سياسية نافذة آنذاك، وتحوَّل إلى طرحٍ مسلَّم به عند الكثيرين[٢].

إننا إذن أمام حركتَيْن نقديتَيْن وَضَعتَا الأنثروبولوجيا مَوْضِعَ تساؤلٍ وريبة. فكانت النتيجة: إمَّا التهميش والإقصاء، وإمَّا استبدال الأنثروبولوجيا بميادين مستحدثة. هنا يحقُّ لنا أن نتساءل مع الأنثروبولوجي المغربي عبد الله حمودي[٣]: ما العمل بالأنثروبولوجيا على إثر النقدين الآنفين؟ هذا من جانب. ومن جانب آخر: ما العمل بتلك المادة التي تكدَّست بالخزانات، وخصوصًا بالخزانة الأنثروبولوجية التي تكوَّنت في ظروف الاستعمار وبعده في ظلِّ الهيمنة المستغلة لظروف العولمة؟

بعيدًا عن أي دعوة تهميشية أو إقصائية، سواء كانت بخلفياتٍ أيديولوجية كالقومية العربية، أو بخلفياتٍ تاريخانية ضيقة، أو بخلفياتٍ فلسفية متعالية...إلخ، بعيدًا عن كل ما من شأنه أن يُعرض عن مجالٍ خصبٍ كالأنثروبولوجيا، يدعونا صاحب «**المسافة والتحليل: في صياغة أنثروبولوجيا عربية**» إلى تجاوز هذا الوضع المأزوم إلى ما يسميه بإعادة الصياغة.

إننا في حاجة إلى عملية إعادة الصياغة، قصد مواجهة مواقف نتجت عن الحركتين النقديتين المذكورتين. لهذا يدعونا حمودي إلى موضعة جديدة، موضعة مبنية على جمع النقيضَيْن: الذاتي والموضوعي، وإلى عملية صياغة تعتمد بشكل أساسيٍّ على نوعٍ من المسافة المنهجية التي نهتدي

(٢) حمودي، عبد الله. المسافة والتحليل: في صياغة أنثروبولوجيا عربية. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠١٩، ص٢٧.
(٣) نفسه، ص٢٥.

إليها بالخوض في تعميق المسافة المعرفية الكولونيالية. وقد يتمُّ بذلك استثمار الرصيد المعرفي الكولونيالي (بتأزيمه من الداخل) بدلًا من التهرب منه والسكوت عنه. وهذا التوجُّه نابع من التشبُّث بالانتماء إلى المجتمع المدروس مقرونًا بموضعة لا تنازل فيها[٤].

***

هذا بالنسبة إلى علاقتنا نحن العرب المتوترة مع الأنثروبولوجيا وخلفياتها: من واقع التهميش والإقصاء، إلى محاولة إعادة الصياغة؛ إعادة صياغة أنثروبولوجيا عربية ممكنة. على أن ترنو تلك الصياغة إلى هدمٍ مزدوجٍ للخلفيات الأيديولوجية المشبوهة لعلم الأنثروبولوجيا (الإناسة) وهدم المواقف السلبية العربية وغير العربية من هذا العِلم الإنساني والاجتماعي الحيوي، وكذ العمل في اللحظة نفسها على إعادة بناء معرفة أنثروبولوجية عربية مستقلة نسبيًّا، بعيدًا عن أي قومية أو وطنية شوفينية ضيقة كما هو معهود. على أن تأخذ من اللغة العربية موطنًا فعليًّا لها من المشارق إلى المغارب، في حوار دائمٍ مع مكونات المعارف الأنثروبولوجيا العالمية ولغاتها المتعدِّدة، مع مواكبة دائمة للتطورات الجارية في هذا الميدان على بساط المعمورة، الكفيل بصياغة وتوطين خطاب أنثروبولوجي متميز، على أن يكون من إنجاز باحثي المجتمعات العربية وإليها، لعله يمكِّننا من مجاوزة الاقتباس والتبعية. هذا هو البديل المعرفي الذي يقترحه الأنثروبولوجي العربي عبد الله حمودي. هذا بالنسبة إلينا. لكن ماذا عن الوضع الأنثروبولوجي العام؟

باستدعائنا للإشكالية الأيديولوجية (**والإبيستيمولجية**) التي أشرنا إليها في بداية هذا المقال، مع الأخذ في الحسبان الممارسة الأنثروبولوجيا الراهنة، يحقُّ لنا التساؤل: هل ينطبق ذلك على الأنثروبولوجيا اليوم؟ وهل ما زالت الأنثروبولوجيا اليوم مرتبطةً بالاستعمار وأيديولوجيته؟ وهل ما زالت تنظر إلى الآخر كماضٍ للثقافة الغربية؟ وهل ما زالت المعرفة الأنثروبولوجية تزامنيةً (**Synchronique**) صِرفة؟ وهل ما زالت تنظر إلى الإنسان غير الغربي كآخر متوحش، أو كإنسانٍ من درجة ثانية، أو كماضٍ-حاضر؟

إذا بحثنا في الأنثروبولوجيا الحالية، أنثروبولوجيا العوالم المعاصرة، الأنثروبولوجيا الجديدة، سيكون الجواب عن تلك الأسئلة بالنفي. لماذا؟ لأن الاستقلال السياسي للمجتمعات المستعمَرة بعد الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى التحولات المجتمعية الجذرية التي شهدتها المجتمعات الغربية

(٤) نفسه، ص٤٧.

وغير الغربية لاحقًا: من عولمة، وتعميم للحضريات الجديدة، وتطور لوسائل الاتصال، وتناسل للتكنولوجيات الجديدة، فضلًا عن ظهور أشكالٍ جديدةٍ من المجتمعات...إلخ؛ كل ذلك وضع مجالات العلوم الاجتماعية الاستعمارية - بشكلٍ عامٍّ - والأنثروبولوجيا الاستعمارية - بشكلٍ خاصٍّ - في أزمة؛ إذ وضعها موضعَ سؤال إبيستيمولوجيٍّ ونقديٍّ من الخارج والداخل، من داخل حقل الأنثروبولوجيا وخارجها، ومن داخل المجتمعات الغربية وخارجها؛ مما فرض عليها أن تُعيد النظر في ذاتها: موضوعًا ومنهجًا، تنظيرًا وممارسة.

وإن كانت العلوم لا تخلو من خلفياتٍ أيديولوجية، كيفما كانت طبيعتها، ومهما بلغت درجة علميتها وموضوعيتها، طبيعية ورياضية كانت أو إنسانية واجتماعية، وإن كانت العلوم الاجتماعية أكثر حميمية ونوستالجية في علاقتها مع الأيديولوجيا من غيرها؛ فإن ذلك لا يمنعنا من طرح السؤال الآتي: ألم تتجاوز الأنثروبولوجيا المعاصرة - أنثروبولوجيا ما فوق الحداثة (**surmodernité**) - النزعةَ الأيديولوجية الغربية من إمبريالية واستعمارية، وتمركز حول الذات، وإرادة الهيمنة؟

إن كل علمٍ من حيث هو حقل معرفي، كيفما كانت طبيعته وشكله، وكيفما كان مجاله الإبيستيمولوجي، كما هو معروف في الإبيستيمولوجيا؛ لا يكون علمًا إلا بتحديدٍ مزدوجٍ للموضوع والمنهج، أي إن لكل علمٍ موضوعًا ومنهجًا محدَّدين. ولمَّا كان الموضوع الكلاسيكي للأنثروبولوجيا هو المجتمعات والثقافات المسماة بدائية، مرورًا بالتقليدية والمستعمَرة فالقروية، ثم البحث عن الملامح التقليدية في المجتمعات الحديثة؛ فإنها وجدت نفسها أمام موضوعٍ في طور التلاشي والاندثار شيئًا فشيئًا، وجدت نفسها أمام موضوعٍ مفقود. والشيء نفسه ينطبق على المنهج؛ إذ يُعَدُّ المنهج الأنثروبولوجي قادرًا على الإمساك بموضوعه المفقود. ونتيجة لذلك، أصبحنا أمام علمٍ مغتربٍ يعيش نوعًا من الاغتراب، نتيجة هجر موضوعه ومنهجه في ظلِّ التغيُّرات المتناسلة والمتسارعة للمعاصرة، مما ولَّد أزمةً وجوديةً للحقل المعني. وأصبحت الأسئلة تلو الأخرى تتناسل وتتوالد وتتكاثف: ما الجدوى من هذا الحقل المعرفي؟ وهل نحن في حاجة إلى علمٍ فقَدَ موضوعه ومنهجه معًا، وتجاوزه موضوعه الإيتيمولوجي: الإنسان ((**Anthropos**؟

هذه الأسئلة وغيرها ولَّدت نقاشًا إبيستيمولوجيًّا وأنثروبولوجيًّا حامي الوطيس حول الهوية المعرفية للأنثروبولوجيا ذاتها، موضوعًا ومنهجًا. كيف ينبغي التعامل مع هذه الوضعية والحالة هذه؟ وهل نتخلَّى بكل بساطة عن مجالٍ معرفيٍّ صار متجاوزًا، أم أنه حان الوقت لكي يُعيد الأنثروبولوجيون النظر في تراثهم المعرفي، محاولين بذلك مجاوزة

الكلاسيكيات الأنثروبولوجية، من خلال - أولًا وقبل كل شيء - فتح حوار نقديٍّ معه، وإعادة النظر الفعلية في الأسس التي يقوم عليها، ومنها إلى إحداث قطائع إبيستيمولوجية فعلية والانفتاح على الأفق الإنساني المعاصر؟

لا شكَّ في أن الاختيار الأول كان مستبعدًا تمامًا؛ لأنه لا يمكننا اليوم - في ضوء ما تشهده عوالمنا من التشعبات والتعقيدات المتشابكة والمنشبكة - أن نستغني عن الأنثروبولوجيا؛ نظرًا لمكانتها المركزية في العلوم الاجتماعية من جهة أولى، ولِما يمكن أن تقدِّمه من فهمٍ وتأويلٍ يُمكنه أن يساهم في توسيع مجال تفكيرنا حول الوجود البشري برمته، من التفاصيل اليومية لحياة الأفراد (**le quotidien**) إلى الأفق الإنساني الكوني، من جهة ثانية.

لم تعد الأنثروبولوجيا اليومَ تدرس المجتمعات التقليدية أو القروية أو تبحث في إمكانية ظهورها واندثارها، بل غدت تدرس الإنسان، أو بمعنى أدقَّ تبحث في ثقافي الإنسان، في أي سياقٍ كان. ومن مفعولات القطيعة التي أحدثتها الأنثروبولوجيا مع ذاتها، أنها أعادت تعريف نفسها من خلال تجسيد ما تعنيه إيتيمولوجيا: الأنثروبولوجيا: علم الإنسان. وبما أن إنسان اليوم هو إنسانُ المعاصرة، فإنها لا تعمل إلَّا على رصد هذه المعاصرة محليًّا وكونيًّا: رهان الأنثروبولوجيا المعاصرة. فبعدما كان الأنثروبولوجي (**l'anthropologue**) - مُمارس الأنثروبولوجيا - يَدرس ساكنةً بعينها، صار اليوم يدرس موضوعات، يبني موضوعاته باستمرار.

صحيح أننا اليوم أمام أنثروبولوجيا مختلفة، مغايرة تمامًا لما كانت عليه كلاسيكياتها؛ لكن هل يعني ذلك أنها قطعت بشكل قطعيٍّ ومطلقٍ مع ما قبلياتها الكلاسيكية؟ سيكون الجواب بنعم، إذا ما انزلقنا في المعنى الوضعاني (**Positivisme**) لمفهوم القطيعة. والحال أننا بعيدون كل البُعْد عن هذا المفهوم. فما نقصده هنا بالقطيعة بوصفها انفصالًا بالدرجة الأولى، ليس فصلًا بين لحظتَيْن، يجبُّ اللاحق منها السابق، بل يتعلَّق الأمر بسيرورة لا تنفكُّ عن الانفصال. فالأنثروبولوجيا الجديدة لم تفقد حِسَّها الأنثروبولوجي، أتحدَّث هنا عن حسِّها الثقافي (الرهان الثقافي)، نهجها الاستقرائي ومنهجها الإثنواغرافي، لكنها نفخت فيه روحًا جديدة، إنها روح المعاصرة.

إذن، هناك اليوم حاجة ملحَّة للأنثروبولوجيا. في حاجة إلى أي أنثروبولوجيا؟ إننا في حاجة إلى أنثروبولوجيا جديدة: أنثروبولوجيا للعوالم المعاصرة. بالمعنى الذي نجدها عند الأنثروبولوجي الفرنسي مارك أوجي (**Marc Augé**)، على سبيل المثال لا الحصر.

يميـز مـارك أوجـي في كتابـه «**مـن أجـل أنثروبولوجيـا للعـوالم المعـاصرة**»(**Pour une anthropologie des mondes contemporains**)[٥]، بـين ثلاثـة عـوالم أساسـية، تخصهـا الأنثروبولوجيـا اليوم بالدراسـة والتفكيـك والتأويـل، وتشـكِّل العـالم المعـاصر، أَلَا وهـي: الفـرد، والظواهـر الدينيـة الخاصَّـة بالمسـتعمرات السـابقة، والمدينـة. إذ تقـع هـذه العـوالم بـين الوحـدة والتعـدُّد. ولفهمهـا، يقـترح علينـا زوجَـيْن مـن المفاهيـم: الأمكنة/اللاأمكنـة (**Lieux /Non-Lieux**)، والحداثة/مـا فـوق الحداثـة(**Modernité/ Surmodernité**) . وهـو الـزوج الـذي يحـاول بـه الأنثروبولوجـي اليـوم تفكيـك مفارقـة المعـاصرة: التفـرُّد والكونيـة. لكـن مـا موقـع المدينـة في هـذه المفارقـة؟ إنهـا مجالهـا الواقعـي: «تلتئـم العـوالم الجديـدة في الواقـع المجـالي للمدينـة، التـي تشـملهم جميعًـا بكيفيـة إمبريقيـة، وتلـك هـي الصعوبـة الجوهريـة في كل تفكـيرٍ حـول المدينـة؛ لأنهـا تفـضي بالـضرورة إلى تسـاؤلٍ يكـون موضوعـه العـالم برمتـه كواقـع معـاصر تمامًـا في حـدِّ ذاتـه»[٦].

وعـلى هـذا الأسـاس، فـإن أنثروبولوجيـا العـوالم المعاصرة هـي أنثروبولوجيـا المدينة. فمـع أنثروبولوجيا المدينـة لم يعـد بإمكاننـا التسـليم بتعميـم نمـاذج غربيـة للمدينـة كمفهـومٍ عـلى مختلـف المـدن الأخـرى: مدننـا، مـدن العـالم الثالث.

لا يفوتنـا في هـذا البـاب أن نشـير إلى دور الأنثروبولوجيـا الحضريـة، بـل إلى دور علـماء اجتـماع جامعة شـيكاغو (مـا سُـمي لاحقًـا بمدرسـة شـيكاغو)، في مجـاوزة الأنثروبولوجيـا لذاتهـا، مـن خـلال تجديـد مناهـج الأنثروبولوجيـا ومفاهيمهـا وموضوعهـا وميدانهـا سوسـيولوجيًّا، والتـي مـا زالـت أنثروبولوجيـا المدينـة اليـوم تديـن لهـم بهـا، كيـف لا، وهـي التـي قـد أسَّسـت بدراسـات السوسـيولوجيا الحضريـة وأبحاثهـا في مدينـة شـيكاغو الأمريكيـة المـيراثَ الأول لأنثروبولوجيـا المدينـة[٧]. كـما لا ينبغـي أن يفوتنـا أيضًـا الإشـارة إلى دور النقـد الفلسـفي والثقـافي للمفكِّـر إدوارد سـعيد عـلى الخصـوص، باعـتراف مـارك أوجـي نفسـه. وكـذا إلى دور فكـر الاختـلاف في إعـادة صياغـة الأنثروبولوجيـا، أنثربولوجيـا العـوالم المعاصرة، مـن حيـث هـي أنثروبولوجيـا للمدينـة بالدرجـة الأولى: «المدينـة عـالم؛ لأنهـا مـن العـالم، ولأنهـا تحمـل

---

(٥) راجـع: - أوجـي، م. أنثروبولوجيـا العـوالم المعـاصرة، ترجمـة: طواهـري ميلـود. الجزائـر: دار الروافـد الثقافيـة، ٢٠١٦ -
Augé, Marc. (1994). Pour une Anthropologie des mondes contemporains. Paris: Éditions Aubier.
- Augé, Marc.(1992). Non-lieux Introduction à une anthropologie de la surmodernité. Paris: Seuil.

(٦) أوجي، م. مرجع سابق، ص١٣٥.

(٧) يمكن الرجوع في هذا الإطار إلى المرجع الآتي:
- Agier, Michel. (2015). Anthropologie de la ville. Paris: PUF.

جميع خصائص العالم الحالي... في المدينة تستشعر - إذن وبشكلٍ خاصٍّ - تعدُّدية العوالم التي تصنع العالم المعاصر: عالم الفرد قبل كل شيء»[٨]. إننا إذن أمام أنثروبولوجيا جديدة لعالمٍ جديد، عالم المدينة، عالم التفردات والكونية، والوحدة والتعدُّد، والأمكنة واللاأمكنة، والحداثة وما فوق الحداثة، والهوية والاختلاف، والمحلي والكوني... عالم المعنى والحرية. إنه عالم المفارقات. وعلى هذا النحو، فإن مهمَّة الأنثروبولوجي اليوم - أنثروبولوجي المعاصرة - تقع فيما بين المعنى والحرية، بين المعنى الاجتماعي والحرية الفردية[٩].

مجمل القول: لم يعد اليوم مقبولًا لدى مثقفينا العرب وغير العرب النظر إلى الأنثروبولوجيا نظرة كلاسيكية، عتيقة ومتقادمة، أي كعلمٍ يدرس المجتمعات التقليدية والمستعمرة، أو كعلمٍ مشبوه أيديولوجيًّا؛ لأن أنثروبولوجيا اليوم تجاوزت ذاتها إلى أنثروبولوجيا مغايرة؛ تقوم على أسسٍ إبيستيمولوجية جديدة، ورهاناتٍ ثقافية جديدة: رهانات إنسانية أكثر منها أيديولوجيةً. هذه هي الأنثروبولوجيا التي ندافع عنها. حرفة تجعل مهمتها الأساسية: التحليل النقدي للتمركز الإثني حول الذات الثقافية المحلية[١٠]، بما فيها الثقافة الغربية في حدِّ ذاتها، وتتيح إمكانية صياغة أنثروبولوجيات قُطرية تنافسية كما هو شأن صياغة أنثروبولوجيا عربية قادرة على التنافس المعرفي والعلمي محليًّا وجهويًّا، إقليميًّا ودوليًّا. إن الأنثروبولوجيا في جوهرها: «إمَّا أن تكون إنسانيةً أو لا تكون».

---

(٨) أوجي، م. مرجع سابق، ص١٤١.

(9) Le Métier d'anthropologue. P. 65

(١٠) نفسه.

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠٢٠

All rights reserved © 2020